عبد القادر بوزيدة
جامعة الجزائر 2

بنية المكان ووظائفه في رواية «الزلزال» للطاهر وطار

ملخص

المكان عنصر من العناصر المكونة للخطاب الروائي؛ لكن الدراسات السردية لم تهتم به اهتمامها بالعناصر الأخرى المكونة لهذا الخطاب (الزمن؛ الشخصيات؛ الأحداث..). وقد حاولت بعض الدراسات لإي الآونة الأخيرة أن تتلافى هذا النقص فعملت على بناء نظرية للمكان ووضع أدوات إجرائية لدراسته ضمن الخطاب الروائي. من أجل معالجة هذا العنصر، وقع اختياري على رواية «الزلزال» للطاهر وطار. وقد حاولت أن أدرس هذا العنصر من حيث بنيته ووظيفته مستفيدا من تلك الدراسات لاستثمارها في تحليل المكون المكاني في هذه الرواية. وقع اختياري على هذه الرواية لأنها، كما أرى، رواية «مكانية» بامتياز. درست الكيفية التي اشتغل بها المكون المكاني في بناء الخطاب الروائي والوظيفة التي أداها. وقد بين التحليل مساهمة هذا المكون في تطور الحدث الروائي، وكيف أن المكان لم يعد مكانا ماديا فحسب ينتمي إلى عالم الطبيعة، بل هو مكان اجتماعي بامتياز تنطبع فيه عادات وقيم وطريقة عيش الفئات الإجتماعية التي تقطنه وتتحرك في إطاره؛ وهو إلى جانب ذلك ينبئ، منخلال التحولات الحاصلة فيه، عن التحولات الحاصلة في المجتمع. لذا أصبحت قصة المكان في قسنطينة تروي لنا قصة التحولات الإجتماعية التي حصلت في الجزائر في فترة معينة وتساهم هكذا في التأريخ للمجتمع الجزائري في الفترة الحجيثة والمعاصرة.

Résumé

L'espace est l'un des constituants du discours romanesque ; les études consacrées au roman se sont plutôt intéressées à d'autres constituants (le temps, les personnages, l'intrigue..) et ont négligé quelque peu l'espace. Depuis quelque temps pourtant, certaines études réalisées par Bachelard, Youri Lotman, Bourneuf, Henri Mitterrand etc. se sont efforcées de mettre au point une théorie de l'espace romanesque et des outils à même d'analyser cet élément constituant du roman. Pour contribuer à ce genre d'études et mettre à l'épreuve les résultats de ces études, mon choix s'est porté sur le roman «Ezzilzel» de Tahar ouettar ; roman «spatial» par excellence, à mon avis. L'étude de la structure et de la fonction de l'espace dans ce roman a permis de mettre en évidence l'importance de l'élément espace dans l'élaboration du discours romanesque, et comment l'espace matériel, naturel se métamorphose pour devenir un espace social par excellence reflétant les habitudes, le système de valeurs et la manière de vivre des couches et classes sociales qui l'occupent. De plus, cet espace nous renseigne, par le biais des transformations qu'il subit, sur les transformations dans la société. Aussi, le roman «Ezzilzel» n'est plus seulement l'histoire de l'espace (ville de Constantine) mais aussi et surtout, l'histoire des transformations sociales survenues en Algérie à un moment de son histoire. «Ezzilzel» contribue ainsi à l'écriture de l'histoire de l'Algérie contemporaine.

المكان عنصر مكوّن في الأدب عموما وفي الخطاب الروائي بوجه خاص. لكن المكان لم يحظ بالاهتمام نفسه الذي حظيت به المكونات الأخرى في الخطاب الروائي (الزمن والحدث والشخصية). وقد بدأ الدارسون يسعون لتلافي هذا النقص؛ فظهرت بعض الدراسات الرائدة (باشلار، يوري لوتمان، رولون بورنوف، هنري ميتران. الخ...)[1] التي حاولت بناء نظرية للمكان ووضع أدوات إجرائية لدراسة هذا المكوّن من مكونات الخطاب الروائي. لكن البعض يرى أن هذه الجهود لم تفض بعد إلى نظرية متكاملة وإلى وضع أدوات إجرائية دقيقة وفعالة. ورغم ذلك، يمكن الاستفادة من هذه الدراسات واستثمارها في تحليل الخطاب الأدبي والخطاب الروائي على وجه الخصوص، والقيام بدراسات تطبيقية يمكن أن تسمح بمراكمة معرفية قد تساعد في اختبار المقولات النظرية والأدوات الإجرائية التي وضعتها تلك الدراسات الرائدة.

سأحاول استثمار بعض منجزات تلك الدراسات لدراسة بنية المكان ووظائفه في رواية الطاهر وطّار «الزلزال»[2]. سأرصد حضور هذا العنصر في هذا الخطاب الروائي، والكيفية أو الكيفيات التي

وظّفـه بهـا الطاهـر وطّـار في بنـاء الروايـة (وهـي فـن زمنـي)، وكيـف اشـتغل عـلى هـذا العنصرلتصويـر عـالم لامتنـاه، متعـدد الأبعـاد، (العـالم الخارجـي) في مسـاحة محـدودة (الروايـة)، وفي نـص لغـوي غـير أيقـوني مـن الناحيـة المبدئيـة، عـلى عكـس فنـون أخـرى؛ ومـا هـي رمزيـة المكان في هـذه الروايـة، وكيـف تصبـح منمذجـة لمفاهيـم وقيـم إيديولوجيـة وأخلاقيـة لا تحمـل في ذاتهـا طبيعـة مكانيـة كـما يقـول يـوري لوتمـان[3]. ولأنّ روايـة «الزلـزال» هـي، في رأيـي، روايـة «مكانيـة» بامتيـاز، فيمكـن أن توفّـر لنـا مثـلا طيبـا يسـمح لنـا بالاشـتغال عـلى بعـض القضايـا الهامة التـي تطرحهـا دراسـة المـكان في الخطـاب الـروائي.

مـن الوهلـة الأولى يطالعنـا العنـوان: «الزلـزال». وهـي كلمـة، إذا نظرنـا إليهـا في دلالتهـا الحرفيـة، تشـير إلى حـدث يقـع في المـكان ينطلـق مـن باطـن الأرض، أي مـن الأسـفل، ويقـوم بتحويـل المـكان مـن حالـة الاسـتقرار الـذي يمنـح الأمـان ويضمـن الحيـاة إلى حالـة الاضطـراب والاهتـزاز الـذي يخلـف الرعـب ويسـبّب الهـلاك.

لكـن هـذه الدلالـة الحرفيـة التـي تشـير إلى واقعـة طبيعيـة ماديـة، إذا أمكـن القـول، سـتتحوّل كلّـما تلاحقـت أحـداث الروايـة لتعنـي شـيئا آخـر ذا طبيعـة اجتماعيـة وإيديولوجيـة كـما سـنرى لاحقـا.

ويتجـلّى الحضـور اللافـت لعنـصر المـكان في الروايـة في العناويـن الفرعيـة التـي تتصـدّر أقسـام الروايـة، وهـي سـبعة. هـذه العناويـن تحمـل كلهـا أسـماء أماكـن، وهـي الجسـور التـي تميّـز مدينـة قسـنطينة (مدينـة الجسـور المعلّقـة) التـي تجـري فيهـا أحـداث الروايـة. والجسـور ،عـلى عكـس الزلـزال، الـذي يقطّـع أوصـال المدينـة ويبعـثره، هـي أماكـن مـن شـأنها أن تربـط أجـزاء المدينـة وتصلهـا ببعضهـا البعـض وتضمـن العبـور الآمـن وتفـادي خطـر السـقوط إلى الهاويـة، إلى الأسـفل.

والرواية تحكي رحلة، أي حركة في المكان. فقد جاء عبد المجيد بولرواح من الجزائر العاصمة بحثا عن بعض أقاربه الذين كان ينوي أن يقسّم أراضيه الشاسعة ويسجّلها بأسمائهم كي يفلت من خطر تأميم تلك الأراضي الزراعية الكبيرة التي يملكها، بموجب قانون الثورة الزراعية. ولأنّ بولرواح تغيّب زمنا طويلا عن مدينة قسنطينة وانقطعت الصلة بينه وبين أقاربه، فإنّ البحث عن الأماكن التي يوجد فيها هؤلاء الأقارب يصبح هو الذي يحدّد تحرّكات بولرواح، ويصبح المكان هو الموقّع لسيرورة الأحداث. فالمكان في رواية «الزلزال»، كما سيتبين شيئا فشيئا، ليس مجرّد ديكور خارجي، بل هو ملتحم التحاما بالأحداث والشخصيات؛ وإنّ وصف المكان يأتي مصاحبا لحركة بولرواح في سعيه لتحقيق برنامجه السردي، كما يقول السيميائيّون، منذ دخوله إلى قسنطينة من باب القنطرة مرورا بمختلف الساحات والأحياء والشوارع والطرق والدروب حتى الجسر الأخير (جسر الهواء) الذي يوجد في الطرف الآخر من المدينة.

ما هي الأماكن التي تذكر وتوصف في الرواية ومن الذي يصفها؟

بعد الصفحات الأولى التي تحدّثنا عن وصول بولرواح إلى قسنطينة ومشاهداته الأولى للمكان وانطباعاته عنه وهو يستعدّ للقيام برحلته، تقدّم لنا الرواية مشهدا بانوراميا أوّلا للمدينة في بضعة أسطر منظورا إليه بعين عبد المجيد بولرواح:

«ألقى نظرة خاطفة على الصفّ الطويل الذي يقف عند مدخل المصعد، ثمّ على الجسر الضّيّق المعلّق بالحبال الفولاذية، ثمّ إلى الأخدود العظيم الذي يفصل بين ضفّتي النهر، ويقف حاجزا بين المدينة وبين جزء كبير منها، ثمّ على الصخرة الملساء المنحدرة مع جانبي الأخدود في نتوءات والتواءات تتخلّلها أشجار وغيران» (الزلزال، الطبعة الأولى، ص*14-15*).

الجسر المعلّق، النهر، الأخدود العظيم، الصخرة الملساء التي بنيت فوقها المدينة، النتوءات والإلتواءات، تلك صورة إجمالية موجزة لمدينة قسنطينة تقدّم منذ الجزء الأوّل من الرواية قبل أن يتقدّم بولرواح في رحلته.

في الجزء الثاني من الرواية، وقد بدأ بولرواح يتوغّل في المدينة بحثا عن أقاربه، تقدّم صورة بانوراميـة أخرى أوسع للمدينة، لا تصوّر المظهر الطبيعي فقط، بل أيضا تلك الأماكن التي تعلن حضور الإنسان؛ وهي دائما صورة تقدّمها عين عبد المجيد بولرواح:

« تسترّ تحت ظلّ نفق، وسرّح بصره إلى الأفق البعيد.. القمم اللاّمتناهية الأشكال والأحجام تتوغّل في السحاب الأبيض تارة، وفي الأشجار الدّاكنة تارة أخرى تليها زاحفة نحو المنحدر تلال ورواب.. عند عتبة السلسلة الجبلية تتمدّد الخضرة نحو اليمين، تحفّ بالوادي الملتوي بمائه الزيتي الداكن وبصخوره الناصعة البياض. عند الأسفل تماما، يبرز لسان الجبل يتخطّى الوادي، هو جسر سيدي مسيد.

« إلى اليسار معمل متّسخ، يبدو كأنه كان للكهرباء، ثم ينهض خلفه، متخلّلا بطريق يبدو رغم البعد أنه مهمل، مثلّث يضم حوالي مائتي مسكن من مبان أرضية ترابية الجدران، قرميدية السقوف.

« الى اليسار تصعد الطريق المتفرعة إلى اتجاهين: المدينة وسطيف. خلفها بعض الشيء يصّاعد من قمة سفح عظيم دخان أزرق كأنه لبركان يخرج في تثاقل من أماكن متعدّدة منتشرة على مساحة كبيرة: مزبلة بولفرايس الشهيرة، ومن خلال الفجوات التي تتخلّل الدخان، تبدو أجزاء سوداء شيطانية الحركة، تتطاول وتتقاصر، تذهب وتجيء، تلف يمينا وشمالا.

« دون بوسفور قسنطسنة هذا، هضاب جرداء ثم تنحدر فلول حي الكدية، عمارات متصاغرة، ثم فيلات تتزاحم.. وسط حدائق تصغر كلما انحدرت نحو الأسفل، ثم هضاب جرداء حتى الحي المثلّث، يمينا ويسارا في أسفل المدينة، عوينة الفول.» (ص45-44)

وإنه لأمر لافت للنظر أن الطريقة التي توصف بها الأماكن وتنعت في هذا المشهد تختلف عندما يتعلق الأمر بالأماكن الطبيعية من ناحية، والأماكن التي تعلن حضور الإنسان من ناحية أخرى. وهكذا توصف الأماكن الطبيعية وصفا يجعل منها أماكن فردوسية euphoriques من شأنها أن تدخل البهجة على النفس. أما الأماكن التي تشهد حضور الإنسان، فإن الوصف يسبغ عليها نعوتا سلبية: معمل متّسخ، طريق مهمل، مبان ترابية الجدران، دخان أزرق، مزبلة بولفرايس، أجزاء سوداء شيطانية الحركة تتطاول وتتقاصر، هضاب جرداء، عمارات متصاغرة. وهو وصف يعلن عن النظرة التي ينظر بها عبد المجيد بولرواح إلى المدينة وموقفه منها والذي سيتأكّد ويتعمق خلال كل فصول الرواية ليصبح موقفا عدائيا.

بعد هذا الوصف لمشاهد بانورامية قبل أن يتوغّل في المدينة المأهولة، نجد أوصافا دقيقة لأجزاء مدينة قسنطينة، وهي أوصاف من الدقّة بحيث يمكن، إذا وضعناها إلى جانب بعضها البعض، أن نرسم بسهولة خريطة مدينة قسنطينة وطوبوغرافيتها. ولكنّ اختيار الأماكن التي توصف لا يتمّ كيفما اتفق، وإنّما يتواكب وحركة الأحداث وتنقل بولرواح من مكان إلى مكان لتحقيق الهدف الذي جاء من أجله كما أشرنا سابقا.

توصف مختلف أماكن المدينة التي يمر بها بولرواح، فتنتقل العملية من وصف القسم العالي من المدينة وتنزل شيئا فشيئا نحو الأسفل؛ وهو خطّ سير سنرى لاحقا دلالته.

ولأنّ الرواية تصف رحلة بولرواح، فإنّها لا تذكر أغلب الأحيان إلاّ الأماكن المفتوحة؛ الساحات والأحياء والشوارع: ساحة السوق الكبرى، السبّاط، مزبلة بولفرايس، رحبة الجمال، ساحة الشهداء، السويقة، باب الجابية، سوق الخرداوات، رحبة سوق العصر، حي اليهود، حي سيدي مسيد، حي الكدية، عوينة الفول، حي باردو، حي جنان «التشينة»، الخ.. وعلى امتداد الرواية تذكر أماكن أخرى كثيرة في قسنطينة من أقصاها إلى أقصاها مثل المقرّات الرسمية والنوادي والزوايا والمساجد والمصانع وأماكن التخزين والمصحات والمدارس والمقاهي والمطاعم... ولكنها توصف أغلب الأحيان من الخارج كما تشاهدها عين بولرواح وهو ينتقل من مكان إلى مكان بحثا عن أقاربه؛ وهو إلى ذلك في عجلة من أمره يستعجل تحقيق هدفه ليغادر المدينة في اليوم نفسه؛ وعندما يتوقف في مطعم أو مقهى للاستراحة من عناء السير أو في مسجد للاستراحة والدعاء في صلاته لتحل الكارثة بالمدينة، فهو لا يصف هذه الأماكن من الداخل إلاّ في استثناءات قليلة: مرة في مسجد زاوية سيدي راشد، ومرة أخرى عندما أدخله بلباي، الذي كان يعرفه سابقا، إلى مقصورة خاصة في مطعمه، وكانت الفرصة سانحة لوصف المكان من الداخل والمقابلة بين خارج المطعم والجانب الظاهر من داخله من جهة، والجانب المغلق (المقصورة) من جهة أخرى للإشارة، عن طريق المقابلة، إلى التغيير الحاصل في المدينة والتعارض بين عالم جديد خرج إلى العلن وعالم قديم لازال موجودا ولكنه منكفئ في أماكن مغلقة. وسنعود بتفصيل أكبر إلى هذه المسألة لاحقا.

إلى جانب هذه الأماكن، هناك حضور لافت للشوارع والأنهج والدروب والأزقة والمسالك التي يمر بها بولرواح في رحلته: شارع

19 مـاي، شـارع «كرامـا»، شـارع فلسـطين، شـارع زيـروت يوسـف، شـارع يوغوسـلافيا، شـارع العـربي بـن مهيـدي، نهـج أحمـد هـلال، نهـج كورنـاي، نهـج بونـاب عـلي، نهـج شـيتو عمـر، نهـج طاطـاش بلقاسـم، زقـاق «الرمبـلي»، الأزقـة الضيقـة في قسـنطينة السـفلى، الـخ.. وهـو لا يذكـر هـذه الأماكـن فحسـب، ولكنـه يحـدد بدقـة مواقعهـا كـما هـي موجـودة فعـلا؛ وهـو مـا مـن شـأنه أن يلعـب دور الإيهـام بالواقـع كـما يظهـر في هـذا المقطـع:

« خـرج مـن بـين المقاعـد والمناضـد، ووجـد نفسـه في ملتقـى الطـرق. عـلى اليسـار، شـارع زيـروت يوسـف، بعـده شـارع لا يـدري عنوانـه.. بعـده شـارع التاسـع عـشر مـاي، نهـج فرنسـا السـابق، بعـده العـربي بـن مهيـدي، ثـم مسـارب سـيدي راشـد، وعـلى اليمـين تمامـا المنحـدر نحـو سـاحة الشـهداء ثـم التفرعـات والانطلاقـات، صعـودا وهبوطـا، يمينـا وشـمالا، وفي كل الاتجاهـات» *(ص69)*.

لكـن هـذه الشـوارع والطـرق لا تذكـر بدقـة بهـدف الإيهـام بالواقـع فحسـب، بـل إنّ انطباعـات عبـد المجيـد بولـرواح تصاحـب ذلـك الوصـف أحيانـا كثـيرة، كاشـفة رمزيـة تلـك الشـوارع مـن جهـة، وموقـف بولـرواح الإيديولوجـي الـذي يصطـدم بالخلفيـة الإيديولوجيـة التـي كانـت وراء إطـلاق التسـميات عـلى تلـك الشـوارع:

« عندمـا خـرج إلى شـارع زيـروت يوسـف المتمـم لشـارع يوغوسـلافيا، التفـت إلى الخلـف وتأمـل الثكنـة (...)، انحـدر قليـلا، ووجـد نفسـه في شـارع يوغوسـلافيا، وتسـاءل: كيـف أتاحـت لهـم عبقريتهـم الاهتـداء إلى تقسـيم الشـارع بهـذا الشـكل؟ نصفـه لشـهيد بطـل، ونصفـه لبلـد شـيوعي.(...)

« ولّى منحدرا نحو شارع زيروت يوسف، وعندما بلغه فكّر.. هنا يجب أن يقام جدار كجدار برلين ليؤكّد شخصية كلّ جهة» *(ص44 و 48)*.

فالمكان في الرواية، كما نرى، ليس مجرد معطاة مادية محايدة توصف وصفا محايدا، بل هناك شخصية مبئرة تقدم المكان وتصوره من منظورها وتنتج خطابا حوله، وهو، من ناحية أخرى، مكان فاعل يؤثّر في الشخصية وفي مصيرها كما سنرى لاحقا لأنه، إلى جانب كونه مكانا ماديا، هو مكان اجتماعي ليس بالنظر إلى الفئات الاجتماعية التي تتموقع فيه فحسب، بل إلى مظهره المادي أيضا والأشياء التي تؤثّثه التي ترتسم فيها قيم تلك الفئات الاجتماعية وأنماط سلوكها. والنص الروائي الذي ندرسه يعج بالأمثلة التي تبرز الطابع الاجتماعي للمكان والصراع الدائر حوله وأثر الأزمنة التاريخية فيه.

عندما عاد بولرواح إلى مدينة قسنطينة بعد غياب طويل كاد ألاّ يتعرّف عليها: « هؤلاء الناس وهاته السيارات في حركة مرتجلة. بدأت الحياة في قسنطينة تضيع من ذاكرتي» *(ص10)*. وأحسّ بشيء من الغربة. سيتعمق هذا الإحساس كلما توغّل بولرواح في المدينة وكلما انتقل من قسمها الأعلى إلى قسمها السفلي. وفي أثناء هذه الحركة توصف الأماكن التي يمر بها من خلال نظرته.

منذ البداية، وقد فاجأته التحوّلات الحاصلة في المدينة: « ضاقت المدينة يا ربّي سيدي ، ضاقت»*(ص14)* ، قصد أماكن يمكن أن يجد فيها شيئا من الراحة النفسية: اتجه نحو الجامع الكبير الذي يمكن أن يأنس له، وقد كان في زمن مضى تتلمذ على قادة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، لكنّ تغيّرا طاله، فقد بهت اللون الأخضر المطلي به وحفّت به وجوه المتسوّلين يقفون في صف

طويـل. اسـتفزّته متسـوّلة دفـع يدهـا عندمـا اعترضـت طريقـه وخاطبتـه بوقاحـة، كـما بـدا لـه، وبلهجـة الحـدود الشرقيـة، أي أنّهـا «دخيلـة» عـلى المـكان الـذي عرفـه سـابقا (ص16). بعـد أن غـادر المسـجد، قـرّر أن يلجـأ إلى مـكان آخـر عرفـه في السـابق، كان يلتقـي فيـه كبـار القـوم، علّـه يجـد فيـه شـيئا مـن الراحـة؛ لكـنّ التغـير طالـه هـو أيضـا:

« قـرّر أن يقطـع المسـافة الصغـيرة في اتجـاه الـدرب المقابـل حيـث مطعـم بلبـاي الشـهير.

« تأمّـل مدخـل المطعـم، فلـم يصـدّق عينيه..المـكان هـو المـكان لكـن حالـه تغـيرت كثـيرا..

« (...)

« نـزل درجـة إلى اليمـين ليجـد نفسـه داخـل المحـل. طـلاء الجـدران ذائـب إلى درجـة فقـد معهـا لونـه. المقاعـد اختفـت وحلـت محلهـا مصاطـب خشـبية متداعيـة، والمناضـد المسـتديرة حلـت محلهـا رفـوف زنكيـة عـلى الجـدران.

« - لا حـول ولا قـوة إلاّ باللـه. أحقّـا هـذا هـو مطعـم بلبـاي، الـذي عـرف الأغـوات والباشـوات والمشـايخ وكبـار القـوم، أصحـاب الأرض والأغنـام والجـاه.» (ص23).

وتـبرز الدلالـة الاجتماعيـة لتغـير المـكان هـذا وموقـف بولـرواح منـه، وهـو الـذي ينتمـي إلى فئـة كبـار المـلاك، عـن طريـق المقابلـة التفصيليـة بـين حالـة المـكان (المطعـم) في السـابق، في عهـد الأغـوات والباشـوات ..، وفي الحـاضر الـذي شـهد احتـلال المـكان مـن قبـل فئـات اجتماعيـة أخـرى. في البدايـة، ولم يكـن بلبـاي قـد تعـرّف بعـد عـلى هويـة بولـرواح،

أنكر أن يتفضّل «هذا الشيخ الوقور، صاحب البدلة الصيفية والحذاء الأسود اللماع» الذي ينمّ عن انتماء اجتماعي معين، و «يجلس على مصطبة أمام رفّ زنكي، وإلى جانب هؤلاء المتسخين، من باعة ثمر الصبار، وحمالين، ونشّالين، ومعيني سائقي الشاحنات» *(ص24)*. وعندما عرفه فرح لأنّه وجد من ينتمي إليه، ولم يتركه في ذلك المكان بل أخذه إلى مكان مغلق، إلى مقصورة داخل المطعم، وقدّم له مقعدا وطلب منه أن «ينتظره حول منضدة لا تزال تحتفظ برونقها وتبدو بالنسبة للمصاطب وللرفوف الزنكية، في منتهى الفخامة والضخامة، وما أن غادره حتى رفع بصره نحو الجدار..

« قابلته صورة ضخمة، في إطار مذهّب، فتناهض وتقدّم متفحّصا.

« بلباي في أيام عزّته وعظمته محاطا بجماعة من كبار ولاية قسنطينة، باشوات وآغوات وقياد ونوّاب وموظّفين سامين...أنوار ثرية ضخمة تتلألأ منعكسة على ملاعق من الفضّة وكؤوس البلّور ومزهريات النحاس» *(ص27)*.

وعندما سأله بولرواح عمّا حلّ بمطعمه العظيم، كان ردّه :

« أسكت أسكت. الفرنسيون خرجوا. المسلمون خلفوهم.» *(ص27)*.

وتظهر هذه العلاقة بين المكان والفئات الاجتماعية التي تحتله بتفصيل أكبر على لسان بولرواح ، من خلال منظوره الخاص الذي يعبّر عن انتماء اجتماعي واصطفاف ايديولوجي:

« ..المدينة انقلبت رأسا على عقب. زمن الفرنسيين كانت هادئة، هادئة بشكل ملفت (هكذا) للنظر.تدبّ الحياة فيها مع مطلع النهار، رويدا رويدا، وتزدهر بين العاشرة ومنتصف النهار ثمّ تخفت فجأة،

حتـى السـاعة الثالثـة، لتسـتأنف تصاعدهـا حتـى تشـتدّ بـين الخامسـة والتاسـعة عندمـا يغـادر التلاميـذ المـدارس والثانويـات والمعاهـد، وتتألّـق الأنـوار، وتنطلـق العطـور مـع الغـادات الأروبيـات والإسرائيليّـات الـلاّئي يمـلأن الشـوارع، كالحوريّـات، بهجـة وحبـورا» *(ص12).*

فضـاء فـردوسي في نظـر فئـات اجتماعيـة معينـة هـي التـي تحتلـه وتطبعـه بطابعهـا مـن خـلال العلامـات التـي تشـير إلى القيـم الاجتماعيـة التـي تحملهـا هـذه الفئـات وتظفيهـا عـلى المـكان. وهـو لهـذا فضـاء يُحـضر عـلى فئـات اجتماعيـة دنيـا الدخـول إليـه:

« نـزْل باريـس. النـزل الكبـير. المقاهـي العظمـى الثـلاث المشرفـة عـلى السـاحة. هنـا كان الملتقـى. الموظفـون المسـلمون. كبـار الفلاّحـين والمعمّريـن والأغـاوات والباشـاغاوات. كبـار أصحـاب الأعـمال والتجّـار. هنـا كان الدخـول ممنوعـا عـلى الرعـاع. كانـت الهيبـة وحدهـا تمنـع الأهـالي مـن الولـوج.» *(ص71).*

لكـنّ هـذا الفضـاء الـذي كان حكـرا عـلى المعمّريـن وكبـار المـلاّك مـن الجزائريـين بـدأ مـن سـمّاهم بولـرواح الرّعـاع يخترقونـه، يـوم بـدأ « الرعـاة والحفـاة والعـراة يدخلـون مـن الريـف والقـرى ليقتلـوا الأسـياد هنـا ويخرّبـوا، يومـذاك أحسسـت بالزلـزال الحقيقـي. ايـه. كـم آغـا، وكـم باشـاغا، وكـم قائـدا، وكـم ضابطـا مـات عـلى يـد راع أو خـمّاس أو حطّـاب أو فحّـام أمـام هـذا المطعـم» *(ص69)*. مطعـم بلبـاي.

هـذا الاخـتراق للأماكـن المخصّصـة لعليـة القـوم والدّالـة عليهـم مـن قبـل الفئـات الدنيـا هـو إعـلان، ليـس عـن تحـوّل الصفـات الماديـة للمـكان فحسـب، بـل تحوّلـه الاجتماعـي واحتلالـه مـن قبـل فئـات جديـدة قادمـة مـن قـاع المجتمـع، وارتسـام قيـم هـذه الفئـات فيـه:

« قسنطينة الحقيقية انتهت. أقول. زلزلت زلزالها. لم يبق من أهلها أحد كما كان. أين قسنطينة بلباي وبلفقون وبن جلول وبن تشيكو وبن كرارة؟ زلزلت زلزالها. زلزلت زلزالها وحلّت محلها قسنطينة بن فنارة وبو الشعير وبولفول وبوطمّين وبو كلّ النباتات». (ص28).

هذا هو الزلزال إذن. هو زلزال طال المكان وملامحه، ولكنه أساسا علامة على زلزال اجتماعي تحوّلت فيه المدينة تحوّلا شمل المكان والذين يحتلّون المكان والقيم المرتسمة فيه.

ولأنّ التحوّل طال كلّ الأماكن، خاصة تلك التي كانت مأوى علية القوم، والتي كان بولرواح يرتادها في زمن مضى، فقد فقدت بالنسبة إليه طابعها الفردوسي وتحوّلت إلى أماكن جهنّمية. وكان الإحساس بجهنّمية المكان يتفاقم كلّما أوغل بولرواح في المدينة وانتقل من الأماكن التي توجد في أعلاها إلى تلك التي توجد في أسفلها.

لقد دخل بولرواح إلى المدينة من جهة باب القنطرة الذي يوجد في أعالي المدينة. جاء إليها مقتحما ليحمي ممتلكاته. وقد كان هذا المكان في البداية يشعره بنوع من الاطمئنان رغم بعض المظاهر غير المألوفة التي لاحظها والتي كادت تنسيه الحياة القسنطينية كما عرفها؛ وكانت الأوصاف التي يسبغها على المكان هناك، في الأعالي، أوصاف فيها قدر من الإيجابية:

« هذا الجسر، أفضل جسور قسنطينة السبعة. عريض وقصير، سرعان ما ينسي الإنسان الهوّة التي بينه وبين الوادي.

« كلّ شيء من هذه الناحية يبدو على عهده: خضرة الأشجار، تميّز النباتات وتباينها. هناك الثانوية، هناك المستشفى (...) تمثال القدّسة جان دارك بجناحيه، متأهب لطيران لم يتم منذ عهد تعيد. ثمّ اله قسنطينة، الجسر المعلق.» (ص11-10).

لكـن هـذا الانطبـاع الإيجـابي النسـبي، وهـذا الإحسـاس بـشيء مـن الألفـة تجـاه المـكان بـدأ يتـلاشى كلّـما توغّـل بولـرواح في المكان انحـدارا مـن الأعـلى إلى الأسـفل كـما أشرنـا. وكانـت طبيعـة الأوصـاف التـي يسـبغها عـلى الأماكـن تـزداد قتامـة. والأماكـن كـما يصفهـا متهالكـة موحشـة :

« قابلتـه دار متكئـة بجدرانهـا ونوافذهـا عـلى دار أخـرى (...). خربـة عـلى اليمـين.» (123)

« التفـت إلى اليمـين، فقابلتـه خربـة كبـيرة بـين البنايـات المتآكلـة وبـين حافـة الـوادي. قـرّر أن ينـزل حتـى السـور المثلـوم في كل مـتر منـه تقريبـا» (ص125).

« في الأسـفل، زقـاق «الرمبـلي» (...) سـوق خـرداوات مـن كل نـوع (...)، رقـاع نيلونيـة أو ورقيـة وقماشـية فوقهـا مفاتيـح فاسـدة ومسـامير معوجّـة وحنفيـات مكسـورة أو ثيـاب مهلهلـة وأعقـاب خبـز متسـخة» (ص134).

« فـوق، رحبـة الجـمال والسـويقة والحـيّ كلـه يبـدو قصبـة الجزائـر مقلوبـة. هـذا القرميـد مـن عهـد نـوح. هـذه زريبـة قديمـة متآكلـة مقلوبـة. الجـدران مائلـة إلى المنحـدر بشـكل فظيـع. دور كثـيرة متصدّعـة. دور كثـيرة مهجـورة.» (ص135-134).

وهـي ليسـت أوصافـا تخـص المـكان المـادي فحسـب، بـل خاصـة تلـك التـي تخـصّ سـاكنيه ومرتاديـه الذيـن ينتمـون إلى فئـات اجتماعيـة غـير تلـك التـي ينتمـي إليهـا بولـرواح ويطبعـون المـكان ويسـبغون عليـه قيمهـم. ومـن هنـا إحساسـه بالضيـق وبالغربـة :

« الهواء خانق وسط المدينة. ثمّ هذا الخلق الذي لاينقطع عن الذهاب والمجيء. لولا المسألة التي جئت من أجلها لغادرت عالم الآخرة هذا».(ص40).

« المدينة أشبه ما تكون بباخرة في محيط عظيم توحي كل خطوة بالوحشة وبالشعور بالاغتراب» (ص43).

« كثروا بشكل فظيع، إنهم يخرجون من كل زاوية. هذا يوم حشر». (ص74).

« واجهته قافلة من الروائح، استنشق رائحة أدمغة مشوية ثمّ رائحة قشور ثمر الصبّار، ثم رائحة بول، ثم رائحة عقاقير كيميائية،(...)، ثم رائحة آباط،ثم رائحة أقدام نتنة». (ص70).

بل إن الأماكن ذات المظهر الحسن قد أثارت حفيظته هي أيضا، وذلك لأنها تعبّر عن مشروع وعن قيم وعن تحوّل اجتماعي ينذر بأفول المجتمع القديم، مجتمع بولرواح والمعمرين والأغاوات والباشاوات:

« قابلته بناية أنيقة، استغرب وجودها، فراح يتأمّلها. مطلية بالأبيض والأزرق.ما هذه الكتابة التي على جدرانها. معقول...المصحّة البلدية. البلدية تهتم بصحة سكان هذا الحي. رائع جدا عظيم جدا.. شيء آخر؛ قبالة المصحة تقوم مدرسة. ومدرسة كبرى يا سيدي.

« هذا هو النفاق. هذا هو إفساد الشعب. لا يعطونهم العمل ويعطونهم الدواء والتعليم. ما سيكون دور من يتمكن من دخول الثانوية أو الجامعة. إنهم بهذا يخربون الدين والأجيال. يجمعون بين أبناء الأغنياء وأبناء الفقراء في ثانوية أو جامعة واحدة ويعطونهم معلومات واحدة. إنهم يناقضون إرادة الله..» (ص157-156).

وعندما اكتشف أن ابن أخيه عبد القادر الغرابلي قد تعلّم وأصبح أستاذا في ثانوية وسكن عمارة، استنكر الأمر وعدّه علامة على قيام الساعة:

« عبد القادر الغرابلي، عبد القادر الذي ضيع أرض أبيه أستاذ في ثانوية، ويسكن في عمارات الأساتذة. هذا تحدّ صارخ لي. هذا تطاول...يوم ينطاول الحفاة رعاة الشاة في البنيان، ويوم تلد الأمة ربّتها تقوم الساعة.» *(ص159)*.

فالأماكن، كما نرى، والموقف منها ليس موقفا من الأشياء المادية في حدّ ذاتها، بل هو تعبير عن موقف اجتماعي وتموقع ايديولوجي. وإنّ انتقال بولرواح من أعالي المدينة التي جاءها فاتحا إلى أسفل المدينة التي غرق فيها وتاه، يمكن إن نقرأه باعتباره يرمز إلى انحدار موقعه الاجتماعي. ولعلّ هذا هو ما يفسّر الحضور الكثيف لكلمة «الانحدار» كلّما أوغل بولرواح في العالم السفلي:

« في الأسفل، الانحدار ثمّ الانحدار (...) زاوية سيدي عبد المومن ثمّ الانحدار حتى النهر» *(ص115)*؛ « غادر (..) سيدي عبد المومن، وانحدر مع نهج أحمد هلال (...) واصل انحداره السريع (...) قشور ثمر الصبار في كل زاوية» *(ص123)*؛ «همّ أن ينعطف مع نهج شيتورا منحدرا خلف بناية البريد» *(ص141)*؛ «تمتم وواصل الانحدار، تعد النزل مباشرة تبدأ المنازل الأرضية» *(ص145)*؛ «انطلق ينحدر مع سوق العصر، (...) زاوية الكتّانية (...) ها هي تتحوّل إلى تكميلية» *(ص197)*؛ «انحدر، رحبة الصوف تقع في المنحدر لسوق العصر» *(ص204)*.

وفي مكان آخر في الصفحات الأخيرة من الرواية، تجيء كلمة الانحدار على لسان بولرواح لتدلّ، بصورة واضحة، ليس على الانتقال في المكان، بل على تدنّي الوضع الاجتماعي ونوعية الحياة:

«لو بقي اليهود في المدينة، ما كان بلباي يتردّى إلى ما تردّى إليه، وما كان «السبّاط» ينحدر إلى ما انحدر إليه، ولا ساحة «البريش» تصير مثلما صارت، سوقا، ورحبة، يلعب فيها حتى الدومينو، ولظلّت الحديقة مأوى العشّاق والمحبّين لا باعة الشاي بكوانينهم الفحمية وباعة التمر الحامض، أو الحمص المتعفّن». *(ص195)*.

إن الانحدار إلى أسفل المدينة قد تحوّل، شيئا فشيئا، من الإشارة إلى حركة في المكان للدلالة على الانتقال إلى موقع اجتماعي وبروز قيم اجتماعية هي النقيض لموقع بولرواح الاجتماعي الذي يحاول الحفاظ عليه من الانحدار والقيم الاجتماعية التي يؤمن بها والتي تسعى إلى الحفاظ على الحدود بين الطبقات الاجتماعية وأماكن تواجدها؛ وهو لهذا يقف من الأماكن السفلى موقفا عدائيا:

« من هنا، من تحت، من هذا العالم السفلي، من هنا من سيدي مسيد يكون خراب المدينة» *(ص46)*؛ «من علامات الساعة أن يتطاول الحفاة العراة..أن ينقلب الأسفل على الأعلى» *(ص114)*؛ «كلّما كان هناك أسفل، وكلّما كان هناك عالم متردٍ *(...)* كان الخطر على المدينة» *(ص125)*؛ « هذا هو شأن العوالم السفلى. تتردّى. تتردّى. حتّى لا يبقى فيها سوى سفليتها» *(128)*.

وإذا كانت الفئات الاجتماعية التي تقطن المكان هي التي تحدّد معالمه وتسبغ عليه قيمها، فإن المكان أيضا يصبح، كما أشرنا سابقا، عاملا فاعلا يساهم في تحديد مصائر الشخصيات ومسار الأحداث. وهكذا، فإنّ عبد المجيد بولرواح، كلما نزل إلى أسفل المدينة، كلما ضيع طريقه وتاه. فقد كثرت الدروب والممرّات والأزقّة والتفرّعات والإلتواءات. لهذا اضطرّ إلى أن يسترشد ليجد طريقه وهوالذي كان ينأى بنفسه عن مخاطبة الحفاة العراة كما كان يسميهم:

«- النهج مسدود يا بويا.

- ومن أين أذهب إلى سيدي راشد؟

سأل الصبي الذي حذره من الانحدار، وراح ينتظر إرشاده (...). هناك فقدت الأزقة والأنهج العناوين» *(ص128)*.

« أين أنا. أين أنا؟ لم أصل رحبة الصوف بعد مع أنها غير بعيدة عن سوق العصر.

«أين أنا؟...أنا قرب سوق لاشك (...).

« لقد تهت» (ص*201*).

« أين رحبة الصوف يرحم الله والديك؟ (...).

« أقذف نفسي وسط هذا الموج وأتدافع معه حتى أجد مخرجا من هذا التيه. هل أنحدر؟ هل أصعد؟

« وارتمى في النهج وسط موج الراجلين.

« أنا في صحراء سينا

« أنا في التيه» *(ص204-203)*.

هو تيه إذن في مكان متاهة. وهو علامة على التيه في عالم متغير، تراجعت فيه الطبقة الإقطاعية وتقلّص مكانها ومكانتها أمام السيل الجارف والمدّ القادم من الفئات الاجتماعية الدنيا، من العالم السفلي.

إن الحكاية في رواية «الزلزال» هي إذن حكاية المكان المادي والاجتماعي، هي حكاية مدينة قسنطينة والتحولات الحاصلة فيها؛

ومـن ورائهـا حكايـة التحـولات الاجتماعيـة والقيميـة في الجزائـر. إن مـا تقولـه الصـور المتلاحقـة للمـكان هـو تاريـخ المجتمـع الجزائـري في فـترة معيّنـة. والزلـزال ليـس هـو الزلـزال الذي ظـلّ بولـرواح يسـتنجد بالأولياء ليسـلّطوه عـلى المدينـة المتحوّلـة وسـكانها، بـل هـو الزلـزال الـذي أصاب طبقــة المعمريــن والباشــاوات والأغــوات ومــلاّك الأرض الكبــار عــلى شـاكلة عبـد المجيـد بولـرواح.

لقـد تـاه في المـكان الجديـد، أي في المجتمـع الجديـد، وأصابـه نـوع مــن الخبــل جعلــه يهــذي بصــوت عــال وجعــل الأطفــال (أطفــال مزبلـة بولفرايـس والسـويقة وسـوق العصر...أبنـاء الشـهداء والعـمال والبسـطاء) يلاحقونـه ويسـخرون منـه.

ويجـيء المشـهد الأخـير في الروايـة: بولـرواح يحـاصره الأطفـال وسـط جسر الهـواء الـذي يقبـع تحتـه الأخـدود العميـق الـذي ظـلّ بولـرواح يهـدّد مدينـة قسـنطينة بالسـقوط فيـه حـين يضربهـا الزلـزال، والـذي تزايـد ذكـره عـلى لسـانه كلـما توغّـل في المدينـة، وتواتـر بشـكل لافـت وكأنـه يوقّـع حركتـه النفسـية ورعبـه مـن العـالم السـفلي الـذي غـرق فيـه. مشـهد بولـرواح وهـو يقـذف بسـترته وقميصـه وحذائـه وسروالـه إلى الأخـدود العميـق ويسـتعدّ، وقـد أصبـح عاريـا، ليلقـي بنفسـه مـن عـلى الجسر قبـل أن تمنعـه الشرطـة وينتهـي أمـره في المستشـفى.

مشـهد مركّـز يشـير إلى الدلالـة التـي تنبثـق مـن نـص الروايـة الـذي يــروي لنــا قصّــة التحــولات الاجتماعيــة مــن خــلال تحــوّلات المــكان وموقـع الأشـخاص فيـه.

فالمـكان، كـما يظهـر في الروايـة، يلتحـم التحامـا مـع مكوّنـات الروايـة الأخـرى ويسـاهم مسـاهمة أساسـية قـي إبـراز دلالـة الروايـة عـلى التحـولات الاجتماعيـة، الموضـوع الأسـاسي في «الزلـزال».

وقـد يـبرز ذلـك الالتحـام وتلـك التحـولات بصـورة أوضـح مـن خـلال دراسـة وقـع الزمـن التاريخـي في المـكان واندماجـه فيـه ليؤسّـس «كرونوتـوب» المدينـة، مدينـة قسـنطينة؛ قـد تسـنح فرصـة أخـرى لنتحـدّث فيهـا.

البيبليوغرافية :

• الطاهـر وطـار، «الزلـزال»، الشركـة الوطنيـة للنشر والتوزيـع، الجزائـر و دار العلـم للملايـين، بـيروت، الطبعـة الأولى، *1974*. كل الاستشـهادات تؤخـذ مـن هـذه الطبعـة.

• *Bachelard G. (1957), La poétique de l'espace, PUF, Paris*

• *Bourneuf R. (1970), L'organisation de l'espace dans le roman in Etudes littéraires, les Presses de l'Université de Laval, avril 1970.*

• *(1981), L'univers du roman, PUF, Paris*

• *Lotman Y. Youri (1973), La structure du texte artistique, traduit du russe par : Anne Fournier, Bernard Kreise, Eve Malleret et Joëlle Yong, sous la direction de Henri Meschonnic, ed. Gallimard, Paris.*

• *Mitterrand H. (1980), Le discours du roman, PUF, Paris.*

• *(1990), Zola, l'histoire et la fiction, PUF, Paris.*

• *(1994), L'illusion réaliste, PUF, Paris.*